الرحلة العلمية للسنوسي إلى المشرق ودورها في بناء مشروعه الإصلاحي 1824-1859.

The Scientific Journey of Al-Sanusi to the East and Its Role in Constructing His Reformist Project 1824-1859.

مجاود محمد – أستاذ التعليم العالي medjaoued2000@yahoo.fr	تاريخ حديث ومعاصر	جامعة سيدي بلعباس/الجزائر
ميلود ميسوم – أستاذ التعليم العالي miloudmissoum02@yahoo.fr	تاريخ حديث ومعاصر	جامعة الشلف/الجزائر

DOI :

الإرسال: 2026/03/19 **القبول**: 2026/05/17 **النشر**: 2026/06/20

ملخص:

تتناول هذا الورقة بالدراسة والتحليل رحلة العلامة والمتصوف الجزائري محمد بن علي السنوسي (1787-1859م)، مؤسس أحد أهم الحركات الإصلاحية الصوفية في القرن التاسع عشر، ألا وهي "السنوسية". لا تقتصر أهمية الدراسة على تتبع المسار الجغرافي للرحلة من الجزائر إلى تونس فالقاهرة فالحجاز ثم الاستقرار في ليبيا، بل تتعداها لتحليل التحولات الفكرية والسياسية التي صاحبت هذه الرحلة. تستعرض الورقة كيف تشكلت رؤية السنوسي الإصلاحية خلال احتكاكه بالمدارس الفقهية والصوفية المختلفة، وكيف مهدت له رحلته لنقل مركز دعوته من الحجاز إلى برقة، ليؤسس هناك نواة مشروع حضاري جمع بين الروحانية والجهاد ومقاومة التمدد الاستعماري، واضعًا اللبنات الأولى لما سيصبح لاحقًا نواة للمملكة الليبية.

كلمات مفتاحية: محمد بن علي السنوسي، السنوسية، الحجاز، برقة، الجغبوب، الإصلاح الإسلامي، التصوف، المقاومة.

Abstract:

This paper examines and analyzes the journey of the Algerian scholar and Sufi, Muhammad ibn Ali al-Sanusi (1787–1859), founder of one of the most significant Sufi reform movements of the nineteenth century: the Sanusiyya. The significance of this study extends beyond tracing the geographical trajectory of his journey—from Algeria to Tunisia, then Cairo and the Hejaz, before settling in Libya—to encompass an analysis of the intellectual and political transformations that accompanied it. The paper explores how al-Sanusi's reformist vision took shape through his engagement with various schools of jurisprudence and Sufism, and how his journey paved the way for relocating the center of his movement from the Hejaz

المؤلف المراسل: ميلود ميسوم البريد الإلكتروني : miloudmissoum02@yahoo.fr

to Cyrenaica, where he established the nucleus of a civilizational project that combined spirituality, jihad, and resistance to colonial expansion—laying the foundation for what would later become the core of the Libyan monarchy.
Keywords : Muhammad ibn Ali al-Sanusi, the Sanusiyya, the Hejaz, barqa, Jaghbub, Islamic reform, Sufism, resistance.

مقدمة:

شكلت نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر مرحلة دقيقة في تاريخ العالم الإسلامي، تمزقت فيها أوصال الدولة العثمانية، وبدأ المد الاستعماري الأوروبي يضرب بقوة في عمق الأراضي الإسلامية، بداية باحتلال نابليون لمصر (1798-1801) ثم احتلال فرنسا للجزائر (1830). في خضم هذه الفوضى السياسية والانحطاط الفكري، برزت حركات إصلاحية تسعى إلى بعث الروح الإسلامية من جديد. كان من أبرزها الحركة السنوسية، التي أسسها العلامة الجزائري محمد بن علي السنوسي.

تكمن إشكالية هذا البحث في سؤال رئيس: كيف أسهمت رحلة محمد بن علي السنوسي العلمية والعملية من مسقط رأسه بالجزائر مرورًا بالحواضر العلمية الكبرى (تونس، القاهرة، الحجاز) وصولاً إلى استقراره في برقة، في تشكيل هويته الإصلاحية ورؤيته الحضارية؟ وكيف استطاع تحويل الأفكار المجردة إلى مشروع نهضوي متكامل تمثل في شبكة الزوايا المنتشرة في صحاري إفريقيا؟

1- النشأة والتكوين: جذور الرحلة الفكرية (1787-1821م):

وُلد محمد بن علي السنوسي في قرية "الواسط" قرب مستغانم بالجزائر عام 1787م ،ينتسب إلى "أولاد سيدي عبد الله" (ميسوم، 2018، صفحة 135) ، ونسبه الشريف الذي يتصل بآل البيت عبر سبط النبي الحسن بن علي رضي الله عنهما، عبر سلسلة من الأشراف الأدارسة الذين استقروا في بلاد المغرب، ويظهر ذلك في كتابه الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية (السنوسي، 1349ه) ، لتأكيد نسبه إلى الأدارسة من جهة وللبيت النبوي الشريف من جهة أخرى، فوالده وعدد من أجداده كانوا من علماء المنطقة التي ولد بها، وهو ما منحه منذ صغره شعورا بالمسؤولية التاريخية والدينية

واقتناعه بضرورة الإصلاح وتغيير الأوضاع (الدجاني، 1967، صفحة 41) ،هذا النسب الشريف سيكون له لاحقاً دور في مكانته الدينيةوالاجتماعية وقبوله عند القبائل.

تلقى تعليمه الأولي في الجزائر، حيث ظهرت ملامح الصلاح والخير في هذا الطفل الذي تنبأت جدته الفاضلة السيدة فاطمة بأن سيكون له شأن في المستقبل، وكانت عوامل الاستقامة تتدرج مع سنه بتدرجه في الحياة، حيث أن جدته لوالده السيدة فاطمة قد تنبأت بمستقبله، وكانت متضلعة في العلوم الدينية العقلية منها والنقلية (الأشهب، صفحة 9).

توفي والده وهو لم يتجاوز السنتين من عمره، فكفلته عمته السيدة فاطمة التي كانت من فضليات أهل زمانها متبحرة في العلوم منقطعة للتدريس يحضر مواعظها الرجال، فاعتنت السيدة فاطمة بالطفل وتولت بنفسها تربيته وتثقيفه و أشغلته بعلم العقائد والتوحيد بعد أن حفظ القرآن ولم يتجاوز عمره سبع سنوات (ميسوم، 2018، صفحة 135) ، ويرى حفيده الملك إدريس أن جده بقي معها حتى بلغ سن العاشرة ، فقد توفيت عمته سنة 1212هـ 1797 م بعد أن نجحت في تربيته وغذته بمعارف جمة تناسب سنه ، وعليه يمكن اعتبارها -أي السيدة فاطمة – أستاذه الأول .وبعد وفاتها كفله ابن عم له يسمى الشارف ،وكان رجل علم وفضل فتابع العناية به، وراح ابن السنوسي يجمع العلوم فأتقن القرآن الكريم حفظا ووعيا، ودرس الفقه والتصوف والحديث على يد ابن عمه، ثم أخذ العلم عن مجموعة من العلماء المشهورين في مستغانم ومازونة ومن بينهم الشيخ محي الدين بن شهلة، الشيخ عبد القادر بن عمور، الشيخ محمد بن عبدالقادر،الشيخ محمد بن القندوز، والشيخ محمد بن خليفة والشيخ الصالح أبوطالب المازوني، والشيخ أبوراس الناصري المعسكري (شكري، 1948، صفحة 12).

في هذا الوسط العلمي وهذا الجو الديني و هذه البيئة الإسلامية ،وفي هذه الأسرة ذات الحسب والنسب نشأ الإمام السيد محمد بن علي السنوسي ، وكان طموحا إلى تنسم درجات الفضل والشرف فكرس أيام شبابه لورود مناهل العلم الشرعي على أسسه المتينة وقواعده الصحيحة مهما كلفه الأمر،وصار بذلك علما من الأعلام وإماما تحنو لهيبته هامات الأئمة، فقد بلغ ما بلغه كبار المجتهدين الأفذاذ ، وصار علما من الأعلام التي يستضاء بهديه، وإماما تحنو لهيبته هامات الأئمة (الأشهب، صفحة 9).

لكنه سرعان ما توجه إلى المغرب الأقصى في مطلع القرن التاسع عشر ليلتحق بجامع القرويين بفاس (ميسوم، رحلة محمد بن علي السنوسي إلى فاس في بداية القرن 19م وأثرها في بنائه الفكري والدعوي، 2025، صفحة 175) ، الذي كانت آنذاك منارة علمية كبرى.

غادر ابن السنوسي مستغانم قاصدا فاس بالمغرب الأقصى سنة1220هـ/1805م (ميسوم، رحلة محمد بن علي السنوسي إلى فاس في بداية القرن 19م وأثرها في بنائه الفكري والدعوي، 2025، صفحة 570) ، التي كانت حينها تمثل إحدى الحواضر الإسلامية الهامة في بلاد المغرب، إذ يوجد بها جامع القرويين الذي كان مقصدا لمحمد بن علي السنوسي بهدف التحصيل العلمي لتكملة ما تلقاه في بلاده بمستغانم ومازونة
، لم يقتصر على دراسة الفقه والحديث، بل تأثر بالتيار الصوفي ممثلاً في الطريقة الدرقاوية، مما أعطى تكوينه بعدًا روحياً عميقًا. غادر فاس حاملاً هم الإصلاح متوجهاً إلى تونس (ميسوم، رحلة محمد بن علي السنوسي إلى فاس في بداية القرن 19م وأثرها في بنائه الفكري والدعوي، 2025، صفحة 571).

غادر السنوسي المغرب حوالي عام 1240هـ/1824م متجهاً إلى المشرق، وكانت تونس أولى محطاته الكبرى. كانت تونس آنذاك تحت حكم الأسرة الحسينية، وتزخر بحركة علمية نشيطة خاصة في جامع الزيتونة. مكث السنوسي في تونس فترة التقى خلالها بعدد من العلماء، ودرس في حلقات الزيتونة، مما أتاح له الاحتكاك بالتيارات الفكرية المغاربية قبل عبوره إلى المشرق (زروقي، 2025). كان الهدف من هذه المرحلة هو "الاستفادة والاستزادة" من العلم، وتوسيع دائرة مشايخه.

انتقل بعدها إلى طرابلس الغرب، ناشراً دعوته، قبل أن يستقر به المطاف في القاهرة عام 1824م.

2- في رحاب الأزهر وصراع الأفكار (1824-1828م)

كانت القاهرة في تلك الفترة تشهد صراعًا فكريًا حادًا تحت حكم محمد علي باشا. دخل السنوسي الجامع الأزهر، لكنه اصطدم بجمود المؤسسة الدينية الرسمية. يذكر الباحثون أن السنوسي انتقد علماء الأزهر بشدة لخضوعهم للسلطة العثمانية ولجمودهم الفكري، ودعا إلى فتح باب الاجتهاد وعدم التقيد الأعمى بالمذاهب الأربعة ،هذه الآراء الجريئة أثارت ضده علماء الأزهر، الذين أصدروا فتوى ضده وصفوه فيها بعدم الإنسجام

مع المذهب الرسمي، بل وصل الأمر إلى إصدار بعض العلماء فتوى بتكفيره أو تبديعه بسبب آرائه التجديدية، مما اضطره إلى مغادرة مصر (دحدي، 2010/2009، صفحة 14). تظهر هذه المرحلة المبكرة بوضوح نزعة السنوسي الإصلاحية المستقلة ،هذه التجربة كانت مفصلية؛ إذ دفعت السنوسي إلى ترك مصر والتوجه إلى الحجاز، حيث وجد بيئة أكثر قبولاً للاجتهاد والتجديد (بوزبوجة، 2011/2010، صفحة 57). لم تكن مصر بالنسبة للرحالة المغاربة في القرن التاسع عشر مجرد معبر جغرافي نحو المشرق، بل كانت عاصمة علمية كبرى (بالأزهر) ومركزاً للسلطة السياسية (بمحمد علي باشا). عندما وطئت قدم محمد بن علي السنوسي أرض مصر عام 1239هـ/1824م ، كان يحمل في جعبته تكويناً مغاربياً رصيناً من جامعة القرويين بفاس، وتجربة دعوية في الجزائر وتونس. كانت زيارته لمصر بمثابة امتحان حقيقي لفكره الإصلاحي الناشئ؛ فهنا سيواجه نموذجاً للدولة المركزية الحديثة (دولة محمد علي)، ونموذجاً للعلم الرسمي (الأزهر). خرج السنوسي من مصر بخيبة أمل كبرى، لكنه خرج أيضاً برؤية نقدية محكمة ساهمت في صياغة مشروعه البديل (الصلابي، 1440هـ/2019م).

أ- أهداف الرحلة المصرية: بين التكوين والاختبار

كان وصول السنوسي إلى القاهرة في هذا التوقيت بالغ الدلالة. فمنذ رحيله عن المغرب، كان يحلم بالاستقرار في الحجاز، لكنه مر بمصر بقصد :

- **الاستكشاف والتعلم** :رغب في الاطلاع على تجربة محمد علي باشا الإصلاحية عن قرب، والتي كان صيتها قد ملأ الآفاق، خاصة بعد القضاء على المماليك وتحديه للدولة العثمانية.
- **الاحتكاك العلمي** :قصد الأزهر الشريف لاستكمال مسيرته العلمية، والالتقاء بشيوخه، واختبار مستوى الحركة الفكرية في أكبر مؤسسة سنية في العالم (الصلابي، 1440هـ/2019م).

ب- المشهد السياسي: صدمة الحداثة والاستبداد

ما رآه السنوسي في مصر لم يتوافق مع مثاليته الإصلاحية. فقد وقف على تجربة "الحداثة" كما طبقها محمد علي باشا، والتي كانت قائمة على عسكرة الدولة، واحتكار السلطة، وفتح

البلاد أمام النفوذ الأوروبي. يذكر الدكتور علي الصلابي أن السنوسي لاحظ عدة أمور جعلته لا يرتاح لنوع الحكم الذي أقامه محمد علي، وازدادت قناعته بخطورة هذه السياسة التي اعتبرها "تخدم أعداء الإسلام"

لقد شاهد السنوسي عن كثب الآثار السلبية لهذه السياسة، والتي يمكن تلخيصها في:

- **تحييد العلماء** :رأى كيف تم تهميش المؤسسة الدينية بعد أن كانت قادرة على معارضة السلطة كما حدث في عهد عمر مكرم. ورصد الخلافات التي أوقدها الوالي بين الشيوخ لإضعافهم، ومنها الخلاف الشهير الذي أدى إلى عزل الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر ولزومه داره (الصلابي، 1440هـ/2019م).
- **الانبهار بالتجربة الوهابية** :في المقابل، وجد السنوسي في أخبار الدولة السعودية الأولى (التي قضى عليها محمد علي باشا بتكليف عثماني) نموذجاً مغايراً للنهضة الإسلامية، قائماً على التوحيد وإحياء السنة، مما جعله ينظر إلى حركة محمد علي على أنها "خنجر مسموماً في ظهر الأطماع البريطانية" وخدمة للمشروع الاستعماري (لزعر، 2024، صفحة 6).

ت- المشهد العلمي: رؤية نقدية لانحطاط الأزهر

لم يكن السنوسي أقل قسوة في تقييمه للحالة العلمية في الأزهر. فبدلاً من أن يجد منارة العلم التي تجذب الطلاب من كل حدب وصوب، وجد مؤسسة تعاني من الانحطاط. المصادر التاريخية تشير إلى أنه رأى:

-الجمود والتحجر :العلوم الدينية قد تراكم عليها الغبار، وغلبت عليها التكرارية والابتعاد عن الإبداع

-التقليد المذهبي الأعمى :انتقد السنوسي بشدة ما رآه من خضوع مفرط للمذاهب على حساب الاجتهاد، وهي القضية التي ستكون محورية في فكره الإصلاحي (كهوس)

ث- الجدل الفكري: نواة المشروع السنوسي

هذه القراءة النقدية لمصر وضعت السنوسي في مواجهة مع المؤسسة الدينية هناك. تشير بعض الروايات إلى أن أفكاره التجديدية أدت إلى خلافات مع علماء الأزهر، وصلت إلى حد اتهامه بالخروج عن المألوف. ومع ذلك، فإن هذه المحنة المصرية كانت بمثابة معمل فكري له (بوزبوجة، 2011/2010، صفحة 57):

- **بلورة موقفه من السلطة** :أدرك أن الإصلاح لا يمكن أن يأتي من سلطة مستبدة تريد تسخير الدين لخدمة مشروعها الخاص.
- **تحديد ملامح الإصلاح الديني** :تبلورت لديه قناعة بضرورة العودة إلى الكتاب والسنة بعيداً عن الجمود، مع رفضه للتكفير والتشدد الذي قد ينتج عن بعض القراءات السلفية.

لم يمكث السنوسي في مصر طويلاً (حوالي عام واحد)، وسرعان ما غادرها إلى الحجاز عام 1240هـ/1825م (الصلابي، 1440هـ/2019م). خرج منها بفهم عميق لآفات الحكم والسلطة.

كانت زيارة محمد بن علي السنوسي لمصر بمثابة "الرحلة النقدية" التي اختبر فيها أفكاره قبل نضجها النهائي. فإذا كانت تونس قد زادته مغاربية، فإن مصر هي التي علمته أن النهضة لا تصنعها جيوش محمد علي ولا شيوخ الأزهر الخاضعون. ومن هناك، حمل عصا الترحال متجهاً إلى الحجاز، حاملاً معه رؤية إصلاحية ستتجسد بعد عقدين في زوايا برقة ومنارة الجغبوب.

3- الحجاز: المحطة الأهم في التكوين (1825-1843م)

شكلت الحجاز على مر العصور محطة جذب كبرى للعلماء والطلاب من كل أرجاء العالم الإسلامي، فهي لا تمثل فقط قلب العالم الاسلامي الروحي بوجود الحرمين الشريفين، بل كانت أيضاً سوقاً علمية مفتوحة تلتقي فيها التيارات الفكرية من بلاد المغرب إلى أقاصي المشرق. عندما وصل محمد بن علي السنوسي إلى الحجاز عام 1241هـ/1825م (الدجاني، 1967، صفحة 63) ، كان قد خلف وراءه تجارب ثرية في تونس ومصر، وحمل

معه رصيداً علمياً من القرويين، ووعياً نقدياً بلوره خلال احتكاكه بعلماء الأزهر. كانت الحجاز إذاً المحطة الأهم في رحلته المشرقية، فهي التي ستجمع له أطراف المشروع الإصلاحي، وتمنحه الشرعية العلمية والصوفية، وتؤسس لنواة طريقته التي ستنطلق بعد ذلك إلى فضاءات شمال إفريقيا الرحبة.

كانت مكة والمدينة في تلك الفترة ملتقى لعلماء المسلمين من شتى الأصقاع. وهنا تلقى السنوسي التأثير الأعمق في حياته على يد الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي (1173-1253هـ/1760-1837م) أحد أقطاب التصوف والتجديد،الذي كان قد استقر في مكة المكرمة منذ عام 1214هـ/1799م قادماً من المغرب، وافتتح حلقته العلمية في جوار الحرم، التي سرعان ما تحولت إلى منارة جاذبة للطلاب من كل حدب وصوب. كان ابن إدريس عالماً موسوعياً، جمع بين الفقه والحديث والتصوف، ودعا إلى إحياء السنة والاجتهاد، ونبذ التقليد الأعمى، الأمر الذي جعله محط أنظار الباحثين عن تجديد ديني حقيقي (دحدي، 2010/2009، صفحة 14).

تتلمذ السنوسي على يدأحمد بن إدريس لمدة عامين (1825-28/1827)، وتشرب منه منهجًا صوفياً وسطيًا يعتمد على الكتاب والسنة، بعيداً عن الغلو والابتداع، ومتشبعاً بروح الجهاد والمقاومة (زروقي، الشيخ محمد بن علي السنوسي ورحلته العلمية إلى المشرق العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر).

بعد وفاة شيخه، انقسم مريدوه إلى فرعين، وقاد السنوسي أحد هذين الفرعين. في عام 1837م، اتخذ الخطوة الأكثر حسماً في مسيرته بتأسيس أول زاوية له في "أبي قبيس" بالقرب من مكة، معلناً بذلك الميلاد الرسمي للطريقة السنوسية . انتشرت دعوته في الحجاز، وأنشأ زوايا في الطائف وجدة والمدينة .لكن ضغوط العلماء المحافظين في الحجاز، وربما خشيته من المد الوهابي الذي كان يتوسع في الجزيرة العربية، جعلته يقرر الرحيل بحثاً عن موطن بديل ينشر فيه دعوته بحرية (لزعر، 2024، الصفحات 75-76).

4- العودة إلى إفريقيا والاستقرار في برقة (1843-1853م)

شكلت عودة محمد بن علي السنوسي إلى ليبيا عام 1843م نقطة تحول كبرى ليس فقط في تاريخ الطريقة السنوسية، بل في تاريخ ليبيا الحديث برمته. فبعد رحلة علمية دامت قرابة عقدين من الزمن في تونس ومصر والحجاز، عاد السنوسي إلى وطنه الأم شمال إفريقيا، لكنه هذه المرة لم يكن طالب علم يبحث عن المشايخ، بل كان صاحب مشروع متكامل يحمل رؤية إصلاحية واضحة، وشرعية دينية مركبة (نسب شريف، وإسناد علمي، وإجازة صوفية)، وخبرة تنظيمية اكتسبها من احتكاكه بالحركات الإصلاحية في المشرق.

اختار السنوسي برقة تحديداً لتكون منطلق دعوته، ولعل من أكثر العوامل التي جعلته ينشر دعوته في برقة؛ هو أن برقة كانت تعاني من ضعف كبير في الجانب الديني؛ فقد وصل الأمر بأهلها إلى انتهاك حرمة أركان الإسلام، وتمثل ذلك في عدة مظاهر، منها:

- كانت قبائل برقة ترى عدم ضرورة صيام رمضان، إذ يكلف ثلاثون شابا قويا، فيصومون يوما واحدا، ويرون بذلك قد أدوا واجب الصيام على المسنين والعجزة.
- كثرة الدجالين الذين يدعون لأنفسهم الولاية، فتبعهم عوام الناس فضلوا.
- اتخذت بعض القبائل مواقع برقة؛ لتأدية فريضة الحج بدلا من الحج إلى بيت الله.
- انتشر الجهل بين أبناء القبائل، فكان لا يوجد أحد منهم يعرف القراءة والكتابة.
- غياب كثير من شعائر الدين (الصلابي م.، 2001، الصفحات 57-60).

أ- دوافع الاستقرار في برقة:

لم يكن اختيار محمد بن علي السنوسي لبرقة اعتباطياً، بل كان نتاج حسابات سياسية وجغرافية واجتماعية دقيقة، يمكن إجمالها في الآتي:

- الهروب من المراقبة العثمانية:كان السنوسي قد غادر الحجاز تحت ضغوط السلطات العثمانية وعلماء مكة الذين باتوا يراقبون تحركاته بقلق من تزايد نفوذه. كان بحاجة إلى منطقة بعيدة عن سيطرة الدولة العثمانية المباشرة، حيث يتمتع بقدر من الاستقلالية تمكنه من بناء مشروعه بحرية. كانت برقة آنذاك ولاية عثمانية اسمية، لكن السلطة الفعلية فيها كانت موزعة بين القبائل وشيوخ الزوايا، مع حضور عثماني محدود

يتركز في المدن الساحلية كبنغازي ودرنة. هذا الفراغ السياسي النسبي كان ملائماً تماماً لطموح السنوسي (مخزوم، 2022، صفحة 671).

- القرب من موطن الأجداد:كان السنوسي جزائري المولد، وعاد إلى شمال إفريقيا حيث جذوره المغاربية. كانت برقة تمثل حلقة وصل طبيعية بين المغرب العربي والمشرق العربي، كما أنها كانت مأهولة بقبائل عربية ذات أصول مشابهة لتلك التي عرفها في الجزائر وتونس، مما سهل عملية التواصل والتأثير (المشعل، 1404هـ/1405هـ، صفحة 22).

- **الخصوبة الاجتماعية للبدو:**كان سكان برقة في معظمهم من البدو الرحل الذين يتمتعون بتدين عفوي بعيدا عن تعقيدات المدن وتناحر المذاهب. هؤلاء البدو لم يكونوا مهتمين بالطرق الصوفية الشطحة التي انتشرت في المدن، بممارساتها الاحتفالية والمتصوفة. لكنهم وجدوا في دعوة السنوسي، القائمة على الزهد البسيط والالتزام بالكتاب والسنة والعمل والكسب، ضالتهم المنشودة. تشير المصادر إلى أن "النزعة التقشفية النسبية للرسالة السنوسية كانت مناسبة بشكل خاص لشخصية بدو برقة، الذين لم يتغير أسلوب حياتهم كثيراً على مر القرون"، حيث نجح السنوسي في تقديم نموذج إسلامي بديل يجمع بين الأصالة والواقعية، بعيداً عن غلو المتصوفة وتشدد المتعصبين (مخزوم، 2022، الصفحات 670-671).

- البعد عن الصراعات المذهبية:كانت برقة بعيدة عن مراكز الصراع المذهبي في فاس والقاهرة والآستانة. لم تكن تعاني من الجمود الفقهي الذي لاحظه السنوسي في الأزهر، ولا من الهيمنة العثمانية الثقيلة. كانت أرضاً بكراً صالحة لزرع بذور الإصلاح (ميسوم، محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته، 2018، صفحة 136)

ب- **مرحلة التأسيس: من الزاوية البيضاء إلى الجغبوب.**

- **الزاوية البيضاء (1843م):** نواة المشروع تضاربت المصادر حول التاريخ الدقيق لتأسيس الزاوية البيضاء، لكن الراجح يعود إلى عام**1843**م /1259هـ، وذلك بعد عودة محمد بن علي السنوسي من الحجاز واستقراره في

برقة. تشير بعض المصادر إلى أن التأسيس تم في **1** مارس 1843م، ليكون نقطة الانطلاق الفعلية للحركة السنوسية في ليبيا (زروقي، الشيخ محمد بن علي السنوسي ورحلته العلمية إلى المشرق العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر). في المقابل، تذكر مصادر أخرى تاريخ**1841** م، وربما يعود هذا الاختلاف إلى الفارق بين تاريخ وصول السنوسي إلى برقة وتاريخ البدء الفعلي في بناء الزاوية.

تقع الزاوية البيضاء في منطقة الجبل الأخضر شرق ليبيا، وتحديداً في الموقع الذي نشأت حوله فيما بعد مدينة البيضاء. وقد بنيت الزاوية على أنقاض مستعمرة يونانية قديمة تدعى "بلغراي" ، مما يدل على وعي السنوسي بأهمية الموقع الاستراتيجي عبر العصور. يمتد الموقع بين غرب فرشيطة وشرق كاف الشويخ (زروقي، الشيخ محمد بن علي السنوسي ورحلته العلمية إلى المشرق العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر) ، وقد شكل هذا الاختيار الجغرافي نقطة ارتكاز مثالية لعدة أسباب:

- القرب من الساحل: يبعد حوالي 20 كيلومتراً فقط عن البحر المتوسط،مما يسهل الاتصال بالعالم الخارجي.
- الموقع الجبلي: يقع في منطقة جبلية وعرة توفر حماية طبيعية.
- الخصوبة: تتمتع المنطقة بأمطار وافرة وأراضٍ صالحة للزراعة ،مما يتوافق مع مبدأ السنوسي في الاعتماد على العمل والكسب (الطرابلسي، 1968، الصفحات 56-57).

ت- **الدور الحضاري والوظائف المتعددة للزاوية:**

لم تكن الزاوية البيضاء مجرد مسجد أو مركز ديني، بل كانت مؤسسة مجتمعية شاملة، يمكن تلخيص وظائفها في الآتي:

- **الوظيفة الدينية والدعوية**: عملت الزاوية البيضاء ممثلة في شيوخها وعلمائها على إقامة الشعائر الدينية وتعليم القرآن الكريم وتحفيظه وسط المريدين وأهالي المنطقة الذين بدأوا يتوافدون عبر مراحل، كما دأب الشيخ على تصحيح العقائد ومحاربة البدع والخرافات المنتشرة بين البدو التي أدت إلى زيغ الكثيرين عن الجادة واحتضانهم لبدع قد

أخرجتهم عن الدين،بعدها انتقل الشيخ وأتباعه إلى نشر الفكر السنوسي الوسطي القائم على الكتاب والسنة والابتعاد عن الغلو.

- **الوظيفة التعليمية:** قامت الرؤية التربوية للسنوسي على أسس واضحة استمدها من مشايخه، خاصة أحمد بن إدريس، وصقلتها تجربته النقدية في الأزهر. يمكن تحديد هذه الأسس فيما يلي:

- **الجمع بين التربية الروحية والتعليم:**لم يفصل السنوسي بين تربية النفوس وتعليم العقول. ففي رسائله، أكد أن الزاوية "ما أسست إلا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان". وكانت حلقات العلم تسبقها أو تتبعها جلسات ذكر وتصوف، بهدف تخريج عالم رباني لا مجرد حامل للمعرفة.

- **الوسطية والابتعاد عن الجمود:**جاءت تجربة السنوسي في الأزهر لتؤكد له خطورة الجمود المذهبي والانغلاق الفقهي. لذلك حرص في زاويته على تعليم الطلاب أصول الاجتهاد المقيد، وعدم الاقتصار على مذهب واحد، مع الحفاظ على الاحترام الواجب للأئمة الأربعة. كان المنهج السنوسي يدعو إلى "فتح باب الاجتهاد، وعدم التقليد الأعمى، ونبذ الجمود ".

- الاعتماد على المصادر الأصلية:ركز التعليم السنوسي على العودة المباشرة إلى القرآن والسنة، وجعل منهج السلف الصالح مرجعاً أساسياً في فهم النصوص، بعيداً عن التأويلات الفلسفية أو المذهبية المتصلبة.

- ربط العلم بالعمل:لم يكن العلم في الزاوية البيضاء نظرياً مجرداً، بل كان موجهاً لخدمة المجتمع وحل مشكلاته. كان الطالب يتعلم ليعمل ويدعو ويساهم في بناء الزاوية والمجتمع المحيط. وقد عبر السنوسي عن هذا المفهوم بقوله في إحدى رسائله: "نريد أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة ليحصل المقصود منه (يعني الزاوية) ويدوم، من تعلم العلم وتعليمه، وإقراء القرآن وتفهيمه"

هذا وقد ظل السنوسي خمس سنوات في برقة ينشر دعوته ،وبعدما أسس دعوته في برقة والتف حوله الناس ،واتبعوا دعوته انتقل إلى الحجاز لنشر دعوته ،فمكث فيها حوالي ثماني سنوات ،ينشر دعوته بإنشاء الزوايا التي كانت مركزا لنشر دعوته أينما اتجه ؛ثم قرر الرجوع إلى برقة ،بعد أن ألح عليه أهل برقة بالرجوع ،يذكر أنه طيلة المدة التي كان فيها في الحجاز لم ينقطع عن الاتصال بمريديه ومن كلفهم بإكمال مسيرته، وحين عاد إلى برقة أشرف على متابعة نشاط حركته، ثم عزم على الخروج إلى الجغبوب،وقد رجح المؤرخون عدة أسباب لاختياره الجغبوب مقرا آخر لنشر حركته ،منها (مخزوم، 2022، صفحة 671):

- كانت الجغبوب حينها تعاني من النزاعات الاجتماعية؛وهو ما جعل السنوسي يفكرفي
  الإصلاح بين قبائل الجغبوب.
- كانت بعيدة عن قبضة السلطات؛وهذا ساعده على نشر حركته بشكل أسهل.
- كما كانت مقرا تمر من خلاله القوافل التي تربط بين الجزائر وطرابلس وتشاد وبرقة
  ومصر؛ما يساعد على انتشار دعوته بين شتى الأقطار.
- كذلك كانت مركزا يلجأ إليه النازحون للهروب من الخلافات والنزاعات في المدن؛

فاحتضنتهم السنوسية،وكانت زواياها موطنا لهم (مخزوم، 2022، صفحة 671).

ج- التنظيم الهرمي للتعليم في الزاوية البيضاء:

استحدث السنوسي تنظيماً هرمياً للتعليم يختلف عن النمط السائد في الزوايا التقليدية. يمكن تصور البنية التعليمية في الزاوية البيضاء من خلال المستويات التالية :

- مرحلة التعليم الأساسي (الكتاتيب):كانت الزاوية تضم كتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب لأطفال القبائل المجاورة. أشرف على هذه المرحلة معلمون متخصصون، وكانت مجانية تماماً.

- مرحلة التعليم المتوسط (المعهد الديني): خصصت الزاوية مرحلة أعلى من التعليم الأساسي، حيث يدرس الطلاب العلوم الشرعية واللغة العربية. كانت الدراسة في هذه المرحلة تستغرق عدة سنوات، وتؤهل الطالب للعمل كداعية أو إمام أو معلم في الزوايا الأخرى.

- مرحلة التعليم العالي (التخصص): في هذه المرحلة، كان الطلاب المتفوقون يتابعون دراستهم على يد الشيخ السنوسي نفسه أو كبار تلاميذه، ويتخصصون في علوم معينة كالحديث أو الفقه أو التفسير. كثير من هؤلاء أصبحوا شيوخ زوايا في مناطق مختلفة لاحقا (الصلابي م.، 2001، صفحة 43).

ح- نظام التدريس وآلياته في عهد السنوسي:

- حلقات العلم التقليدية: كانت الدراسة تتم في حلقات داخل المسجد أو فناء الزاوية، حيث يجلس الطلاب حول الشيخ في حلقات متعددة حسب المستويات والمواد. كانت هذه الحلقات مفتوحة لكل راغب في العلم، دون اشتراطات رسمية.

- الإقراء والملازمة: كان الطلاب الجادون يلازمون الشيخ لساعات طويلة، ويقرؤون عليه الكتب قراءة وتصحيحاً، ويتلقون الإجازات العلمية بعد إتمام دراسة متون معينة. نظام الإجازة هذا كان يضمن سلسلة موثوقة من النقل والحفاظ على الأسانيد العلمية (الأشهب، الصفحات 50-51).

- التكليف بالتدريس: من الأساليب التربوية المهمة في الزاوية تكليف الطلاب المتقدمين بتدريس المبتدئين، مما يصقل شخصياتهم ويعدهم للقيام بمهام دعوية وتعليمية مستقبلاً. وقد كان هذا جزءاً من خطة السنوسي لإعداد كوادر قادرة على نشر الدعوة .

- نظام التقييم (الامتحان): كان التقييم يتم عبر اختبارات شفهية وتحريرية، حيث يطلب الشيخ من الطالب شرح متن معين أو الإجابة عن أسئلة في مسائل فقهية. كان النجاح يعني الانتقال إلى مستوى أعلى أو الحصول على إجازة.

- الاستفادة من الزوار والعلماء: نظراً لموقع الزاوية البيضاء على طرق القوافل، كان العلماء والطلاب المارون بالمنطقة يلقون دروساً أو يشاركون في الحلقات، مما أثرى الحركة العلمية فيها (الأشهب، الصفحات 50-51).

خ- الخصائص المميزة للتعليم في عهد المؤسس:

- **التكامل بين التعليم والتربية:** لم يكن التعليم في الزاوية البيضاء مجرد نقل للمعرفة، بل كان عملية تربوية متكاملة تهدف إلى بناء الشخصية المسلمة المتوازنة. كما يشير الباحثون، كانت الزوايا مراكز تربية وتهذيب وتعليم، وإيقاظ للعاطفة الدينية السليمة، وتوجيه الحياة العاملة توجهاً سديداً.

- **التعليم المجاني المفتوح للجميع:** كان التعليم في الزاوية البيضاء متاحاً للجميع دون تمييز، مجاناً تماماً، حيث كانت الزاوية توفر السكن والطعام للطلاب الوافدين، وقد أشار السنوسي إلى ذلك بقوله: "نريد أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة (الصلابي م.، 2001، الصفحات 117-130)" .

- الجمع بين التعليم الديني والحياة العملية: لم ينعزل الطلاب عن الحياة العملية، بل كانوا يشاركون في أعمال الزراعة والبناء وإدارة شؤون الزاوية، تحقيقاً لمبدأ السنوسي في "عدم نسيان نصيب الدنيا" مع العمل للآخرة، مستلهماً قوله تعالى :{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا.} .

- إعداد القادة والدعاة: كان الهدف النهائي من التعليم في الزاوية البيضاء هو إعداد قادة قادرين على نشر الدعوة وإدارة شؤون المجتمع. وقد نجح السنوسي في ذلك، حيث تخرج على يديه جيل من الدعاة الذين حملوا المشروع السنوسي إلى أقاصي إفريقيا (مخزوم، 2022، صفحة 673).

-التوسع الأفقي: انتشار الزوايا

لم يكتف السنوسي بزاوية واحدة، بل شرع في تأسيس شبكة من الزوايا في مختلف أنحاء

برقة والمناطق المجاورة. كانت هذه الزوايا بمثابة "محطات" تربط القبائل بعضها ببعض، وتؤدي وظائف متعددة (دحدي، 2010/2009، صفحة 19).

د- **الفكر السياسي السنوسي: من التصوف إلى الدولة**

لم يكن محمد بن علي السنوسي سياسياً بالمعنى الحديث، بل كان مصلحاً دينياً صوفياً. لكن الظروف والتطورات التاريخية فرضت على الحركة السنوسية أن تتحول تدريجياً إلى كيان سياسي. يمكن تتبع ملامح الفكر السياسي السنوسي في مرحلته التأسيسية من خلال العناصر الآتية:

- رفض التبعية للسلطة العثمانية: طوال حياته، سعى السنوسي إلى الاستقلال عن السلطة العثمانية، ليس من منطلق العداء لها، بل من منطلق الرغبة في الحرية لبناء مشروعه الإصلاحي. كان يرى في الدولة العثمانية نموذجاً للحكم المتدهور الذي يحتاج إلى إصلاح جذري، ولم يكن يريد أن تبتلع طريقتَه آلةُ الدولة البيروقراطية (لزعر، 2024، الصفحات 74-78).

- **المهادنة بدلاً من المواجهة:** على عكس الحركة الوهابية التي دخلت في صدام مسلح مع العثمانيين، اتبع السنوسي سياسة المهادنة والابتعاد عن المواجهة، حيث أنه عندما شعر بالضغط في الحجاز، هاجر إلى ليبيا. وعندما شعر بالمراقبة في الزاوية البيضاء، انتقل إلى الجغبوب. هذه السياسة مكنته من البقاء والنمو دون استفزاز السلطات (مخزوم، 2022، الصفحات 671-680).

- بناء الدولة من القاعدة:لم يفكر السنوسي في الاستيلاء على السلطة من أعلى، بل بنى دولته من الأسفل، عبر الزوايا. كل زاوية كانت بمثابة خلية حكم مصغر، تقدم الخدمات، وتجبي الأموال (صدقات وزكاة)، وتنظم الحياة الاجتماعية، وتدير العلاقات مع القبائل. وعندما توفي عام 1859م، كان قد أسس دولة فعلية، لكنها كانت دولة روحية اجتماعية، قبل أن تتحول إلى دولة سياسية على يد خلفائه (بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، 2001، الصفحات 325-330).

- التمهيد للدولة الوطنية: كما يشير الباحث فورونين، "قام السنوسيون بدور الضامن للاستقرار السياسي مقابل الاعتراف بدورهم القيادي في العملية السياسية والاجتماعية والاقتصادية" حيث وضع المؤسس الأسس التي مكنت خلفاءه، خاصة محمد المهدي (1859-1902م) وأحمد الشريف (1902-1916م) وإدريس السنوسي (1916-1983م)، من تحويل الطريقة إلى قوة سياسية قادرة على توحيد القبائل الليبية، ومقاومة الاحتلال الإيطالي، وأخيراً قيادة البلاد نحو الاستقلال تحت التاج السنوسي عام 1951م (الصلابي م.، 2001).

خاتمة:

لم تكن رحلة محمد بن علي السنوسي مجرد انتقال جغرافي، بل كانت مسيرة فكرية وسياسية بامتياز. ففي رحلته، استقى السنوسي خلاصة التجارب الإسلامية من المغرب إلى المشرق، وكون رؤية نقدية للأزهر، وتشبع بمنهج شيخه ابن إدريس الوسطي، ثم طبق هذه الرؤية على واقع اجتماعي وسياسي متخلف، حيث نجح في بناء نموذج فريد للحركة الإسلامية الإصلاحية، اعتمد على "العزلة المنظمة" لبناء القوة، وربط الروحانية بالاقتصاد، ووحد القبائل تحت مظلة الإسلام، فكان بحق مؤسس "النواة الأولى" للدولة الليبية الحديثة وأحد أبرز رموز المقاومة الإسلامية للاستعمار في إفريقيا.

توفي الشيخ محمد بن علي السنوسي ودفن في الجغبوب، حيث لا يزال قبره قائماً حتى اليوم. لم يشهد بنفسه تحول طريقته إلى مملكة، لكنه وضع اللبنات الأولى لذلك الصرح. لقد نجح في تحويل فكرة صوفية إصلاحية إلى حركة اجتماعية شاملة، ومن ثم إلى مشروع سياسي متكامل. عندما احتلت إيطاليا ليبيا عام 1911م، كانت السنوسية هي التي قادت المقاومة بزعامة عمر المختار. وعندما حانت ساعة الاستقلال عام 1951م، كان الطبيعي أن يتولى عرش ليبيا حفيد المؤسس، محمد إدريس السنوسي، تتويجاً لرحلة بدأت قبل أكثر من قرن من الزمان في الزاوية البيضاء بالجبل الأخضر.

قائمة المراجع:

إبراهيم بن حمد، بن إبراهيم المشعل. (1404هـ/1405هـ). الدعوة السنوسية، دراسة وتقويم. بحث مكتمل لنيل درجة الماجستير . كلية الدعوة والاعلام بالرياض: جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية.

أحمد صدقي الدجاني. (1967). الحركة السنوسية ـ نشأتها نموها وتطورها في القرن 19 م.

البحرية الجزائرية عبر التاريخ1985الجزائرالمتحف المركزي للجيش

البعد الجهادي المغاربي للطريقة السنوسية 1842)، 19312009/2010رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر)أوروبا –مغرب (قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعيةجامعة ابن يوسف بن خدة –الجزائر

رشيد كهوس. من أعلام الوسطية الإمام محمد بن علي السنوسي رحمه الله. الهند: دار العلوم ديوبند.

سميرة بوزبوجة. (2011/2010). الأبعاد الحضارية والثقافية في ليبيا(الطريقة السنوسية نموذجا). رسالة ماجستير . قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية: جامعة سيدي بلعباس.

محمد الطيب الأشهب. السنوسي الكبير. القاهرة: مطبعة محمد عاطف.

محمد بن علي السنوسي. (1349هـ). الدرر السنية في اخبار السلالة الادريسية، محمد حبيب الله بن الشيخ سيدي عبدالعالي الشنقيطي. ، مصر: مطبعة الشباب.

محمد علي الصلابي. (2001). الثمار الزكة للحركة السنوسية في ليبيا: محمد بن علي السنوسي ومنهجه في التأسيس. الشارقة: مكتبة الصحابة.

محمد فؤاد شكري. (1948). السنوسية دين ودولة. بيروت: دار الفكر العربي.

مذكرات خير الدين باربروس2010الجزائرشركة الأصالة

مروة مخزوم. (ديسمبر, 2022). المنهج الدعوي للحركة السنوسية في ليبيا، الإمام محمد بن علي السنوسي "أنموذجا". مجلة أصول الدين الجامعة الأسمرية الاسلامية .

مصطفى زروقي. (بلا تاريخ). الشيخ محمد بن علي السنوسي ورحلته العلمية إلى المشرق العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، الصفحات 122-134.

مصطفى زروقي. (2025). الشيخ محمد بن علي السنوسي ورحلته العلمية إلى المشرق العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، الصفحات 122-134.

ميلود ميسوم. (2025). رحلة محمد بن علي السنوسي إلى فاس في بداية القرن 19م وأثرها في بنائه الفكري والدعوي. مجلة أفاق فكرية ، الصفحات 566-584.

ميلود ميسوم. (جوان, 2018). محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته. الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية ، الصفحات 134-142.

نبيل لزعر. (جوان, 2024). رحلة محمد بن علي السنوسي وتأثيراتها الفكرية والحضارية مغربا ومشرقا. مجلة التاريخ والحضارة الاسلامية .

نيكولاي ايليتش بروشين. (2001). تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين. دار الكتاب الجديد المتحدة.

هابنسترايتد ترحلة العالم الألمانيج .او .هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145)هـ1732/م(،تونسدار الغرب الإسلامي